الإعداد للحياة بالتعليم

قرأنا من مدة قريبة أن بعض الجامعات الاوربية والأمريكية صارت تعنى بتعليم الطلبة طرق السياقة المأمونة للأتومبيل ، وهذا عمل يستغرب من الجامعة أو المدرسة التى تعودنا أن نتلقى منها مواد دراسية أو ثقافية ، ولكن الحقيقة أن رجال التعليم العصريين قد صاروا يدركون من التعليم غاية تتضح لأذهانهم وتتأكد فى وجدانهم وهى ضرورة الملاءمة بين الطالب والبيئة سواء أكانت هذه البيئة طبيعية أم اجتماعية ، وما دامت البيئة المتمدنة فى عصرنا تحفل بالأتومبيلات و يتعرض كثير من الجمهور لأخطارها فان من الواجب المحتوم أن يتعلم كل شاب أو فتاة كيف يسوق أتومبيله أحسن السياقة وكيف يتقى الخطر سواء أكان راكبا أم راجلا .

وعلى هذا المبدأ يجب أن يختلف التعليم باختلاف البيئة التى يعيش وسوف يعيش فيها المتعلم ، وإذا نحن نظرنا إلى التعليم من هذه الزاوية تغير نظرنا له ، لأننا نستطيع فى كل وقت أن نسأل : لماذا نعلم التلميذ هذه المادة ؟ ونستطيع أن نختار من المواد ما يزيد الملاءمة بين التلميذ و بيئته الطبيعية أو بيئته الاجتماعية هذه الملاءمة التى تجعله شخصا متعاونا مع المجتمع الذى يعيش فيه .

وقد يقال إن هناك من المواد الدراسية أو الثقافية ما لا تقصد منه الملاءمة الطبيعية أو الاجتماعية ، مثل الفلسفة أو الفلك أو دراسة الفنون للذة لا للكسب . ولكن هذا خطأ . لأن لكل هذه الدراسات قيمتها الاجتماعية . اذ هى جميعها ثمرة هذا المجتمع الذى أكسبها قيمتها والذى بدونه ليست لها قيمة . اذ ما هى قيمة الفلسفة أو الفلك أو الفنون بلا مجتمع ؟ بل نحن حين نتكلم بلغة ما ونتفاهم بالألفاظ والعبارات والقيم المادية أو الروحية انما نعتمد على المقاييس التى وضعها لنا المجتمع .

فاذا نظرنا الى المدرسة الابتدائية المصرية مثلا وحاولنا أن نعين المواد الدراسية بحيث تلائم المجتمع أو تفقد موادها الحاضرة من هذه الناحية وجدنا أن المجال يتسع للكثير من النقد السلبى والايجابى معا . ولنضرب مثلا بعض هذه المواد :

ففى مدرسة ابتدائية للبنات نجد مسائل عن الحساب تتعلق بتحويل الإردب الى مكاييل انجليزية هى البوشل وغيره . أو نجد مسائل تتعلق بالأمتار التى تحول الى أميال و ياردات . وهذا كله وأشباهه لا يساعد الفتاة على الملاءمة بينها و بين المجتمع المصرى . اذ هى لن ترى فى حياتها مكيال البوشل وان تحتاج الى درس المقاييس أو الموازين الألمانية أو الإنجليزية . وأجدر من هذا الدرس أن نجعل المسائل الحسابية تتصل بحياتها أو تحل مشكلاتها . لأن درس الحساب يجب الا يكون أرقاما مجردة تجرى فى الهواء والهباء، بل يجب أن يتصل بالحياة التى ستعيشها الفتاة كما يجب أن تكون معلمة الحساب ماهرة مدربة فى شؤون الحياة . واذن يمكننى أن اتخيل مسائل الحساب التى تعطى للفتاة التى تعلمت قواعد الحساب الاربع وحساب الكسور ، على الأسلوب التالى :

(١) لنفرض أنك اعطيت مائة جنيه لكى تنفقيها على بيت أنت سيدته مدة عام فكيف تنفقينها بحيث يكفى هذا المبلغ حاجات الطعام وايجار المنزل وسائر الحاجات مع فرض أنك تعيشين مع زوجك وابنتك التى لا يزيد عمرها على خمس سنوات ؟

(٢) أعطيت فاطمة ٢٥ قرشا لكى تنفق منها على طعام يوم بمنزلها فكيف تنفق هذا المبلغ مع العلم بأن سكان هذا المنزل هم أمها وثلاثة من الأخوة أصغر منها أكبرهم لا تزيد سنه على عشر سنوات ؟

(٣) اشترت زينب زوجين من الأرانب بعشرة قروش وزوجين من الحمام بخمسة قروش . فكم تحتاج هذه الدواجن من المال لإطعامها هى ونتاجها مدة عام؟ وهل تكسب منها أم تخسر ؟

مثل هذه المسائل هى مسائل حسابية . ولكن الحساب هنا عرضى . أما الموضوع الأصلى فهو " الحياة " .

فليس فى حياة الفتاة أرض تشترى بالفدان المصرى وتباع بالفدان الانجليزى . وليس فى حياتها مكاييل مصرية تحول الى مكاييل فرنسية، وليس فى حياتها قطارات يقوم أحدها من الإسكندرية والثانى من القاهرة فى وقت واحد وتطالب هى بتعيين المكان الذى يتلاقيان فيه. وليس فى حياتها ما تصبه حنفية من ماء لتملأ حوضا له بالوعة تفرغه. فان الفتاة تتعلم الحساب لكى تعرف كيف تشترى اللحوم والخضراوات والملابس وتؤدى ايجار المنزل . وقد تشترى من وقت لآخر عقارا أو قد تفتح حسابا جاريا فى بنك . فيجب أن تدور مسائل الحساب حول هذه الموضوعات . ويجب أن تختلف فتاة الريف من فتاة المدينة . ولعله مما يفيد هنا أن نذكر أن بعض البنوك فى أمريكا قد فتحت حساب جاريا للصبيان لكى يتعودوا المعاملات المالية منذ صباهم .

وعلى هـذا المبدأ يجب أن نعلم الفتاة حساب الأقة والرطل بحيث تزن بهما وتعرف الصنجات . وبدلا من أن نعطيها مسطرة نعطيها مترا كاملا لكى تقيس به ، ونعلمها كيف تقيس القماش الذى يكفى لفستانها وتقيس البساط الذى يكفى لغرفتها .

وإذا تركنا الحساب ونظرنا إلى الجغرافيا ، فان أول مانهتم به أن نعلم الفتاة التى تعيش فى القاهرة جغرافية القاهرة وضواحيها بحيث تستطيع أن ترسم أحياءها . ثم جغرافية مصر ثم جغرافية العالم . ويجب أن تأخذ السياحة المكانة اللائقة بها فى هـذه الدروس باعتبارها الجغرافية العملية بحيث تزور الفتاة المتاحف والمعارض والضواحى مع الكثير من الثقافة البدائية التى تعرفها فرق الكشافة .

أما جغرافية العالم فيجب أن تكون تلك الجغرافية الحية أى أن يكون موضوعها الانسان فهو الصورة الأصلية ، أما فرش الصورة فهو الجبال والأنهار والمحصولات والصناعات والمدن والبحار . أليس من العجيب أننا ونحن صغار ندرس عن الصين جبالها وأنهارها وبحيراتها ومدنها مما يثقل على اللسان لفظه ويشق حفظه فى حين أننا عند ما نكبر نقرأ الكتب اللذيذة الموضحة بالصور الملونة عن حياة الصينيين وأديانهم وحضارتهم وآثارهم مما تلذ قراءته ؟

فاذا كان درس التاريخ واجبا فان الالتفات يجب أن يتجه إلى الحال السياسية القائمة فى العالم وإلى زعماء السياسة فى الأقطار المختلفة ، ثم ننتقل من العصر الحاضر إلى العصور السابقة ، وهذا الترتيب يجعل عصر الفراعنة من الدروس التى يجب أن تؤجل إلى الأقسام الثانوية .

هذه أمثلة ضربناها سراعا وغايتنا أن نبين أن المـادة الدراسية ليست لها قيمة فى ذاتها وإنما قيمتها فى الحياة الاجتماعيـة وفى تأهيل التلميذ أو الطالب لأن يعيش فى بيئته الطبيعية والاجتماعية أحسن العيش . وبالطبع يدخل فى هذه الملاءمة أن نثير ذهنه بعـلوم ومعارف مختلفة ، وأن نخلق فى نفسه ذلك الاتجاه الذى يجب أن يرافقه مدى الحياة بحيث يعيش طالبا يقرأ ويثقف نفسه ويستزيد من الثقافة ويشتهيها ويعرف كيف وأين يستزيد منها . ويجب لهذا السبب ألا نزحم عقول التلاميذ أو الطلبة بمواد دراسـية ما لم تكن لهـا علاقة صميمة بحياتهم . أى يجب أن ننكف عن تلقينهم مواد نعتقد أنها تدريب ذهنى فقط . وإذا سرنا على هذا المبدأ فإننا نجد أن مقدارا كبيرا مما نسميه فى الوقت الحاضر دروسا قد بدا لنا بلا قيمة ، كما أن مواد أخرى تتجسم لنا قيمتها لأنها تلابس الحياة أو البيئة . فقـد يتضح لنا أن سياقة الأتومبيل أنفع للتلميذ من دراسة الجبر ، أو أن زيارة لروض الفرج حيث تباع الحبوب أنفع من درس البوشل والهنـدردويت والكيلوجرام واللترمن المكاييل أو الموازين الانجليزية أو الفرنسية .